مجلة إشكالات في اللغة والأدب | مجلد: 10 عدد: 3 السنة: 2021
ص: 725 - 742 | E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

أزمة تلقي الخطاب اللّسانيّ في الثقافة اللّغويّة العربيّة عند عبد السلام المسدّي

The Crisis of Receiving Linguistic Speech in the Arabic Linguistic Culture by Abdul Salam al- Masdi

تهامي بلعقون[1]*، د.مراد قفي[2]

Touhami Belaggoune[1], Mourad Gouffi[2]

جامعة محمد بوضياف –المسيلة/ الجزائر

Univercity Mouhamed Boudiaf of M'sila -Algeria.

touhami.belaggoune@univ-msila.dz[1] Mourad.gouffi@univ-msila.dz[2]

تاريخ الإرسال:.2020/11/08	تاريخ القبول:2021/04/11	تاريخ النشر:2021/09/02

ملخص البحث

يعتبر عبد السلام المسدي رائدا من رواد اللّسانيات العربيّة الحديثة؛ فقد تمكّن من علوم اللّغات الأوروبية ودرس مناهجها وأفكارها وغاص في خصائصها، فكان هدفه الارتقاء بالدّرس اللّغوي العربيّ إلى مصاف العلوم اللّغوية العالميّة، وكذا معرفة الأسباب التي جعلته يتخلّف عن ملاحقة العلوم الغربية، وقد عبّر عنها بمفهوم العقبات أو العوائق التي حالت دون تطوّره، فالمسدي مؤمن بضرورة تخطّي العقبات والإشكالات لمواكبة الانتقال اللّغوي وتلقّي علوم اللّسان الحديثة ضمن عصر يسوده التطوّر والتقدّم، وقد اعتمد على منهج قوامه إعادة قراءة التراث العربي واستنطاقه ضمن مقولات اللّسانيات الحديثة.

الكلمات المفتاح : لسانيات، تلقّي، عقبات، أزمة، عبد السلام المسدي.

Abstract :

Abdul Salam Al-Masdi is regarded as one of the leading pioneers of Arab modern linguistics. He mastered European languages sciences, studied its methods and ideas, and equally fathomed out its characteristics. Certainly, his objective was to raise the Arab linguistic study to the ranks of the global linguistic sciences, as well as to find out the reasons that made it fall behind the Western sciences. He justified this retardation by a set of hindrances that precluded the development of the Arab linguistic study. Al-Masdi strongly believed in the necessity of transcending the obstacles and problematics in order to keep pace with the linguistic transition and to receive modern linguistic sciences amid an age overwhelmed by advance and progress. In so doing, he made recourse to a method premised on re-reading and

* تهامي بلعقون، belaggoune.touhami2020@gmail.com

interrogating the Arab Turath (heritage) within the requirements of modern linguistics.

Keywords: Linguistics, receipt, obstacle, crisis, Abdul Salam al- Masdi.

أوّلاً–تقديم:

استطاعت اللّسانيّات منذ ظهورها عند الغرب أن تغدوَ الأساس الأوّل لنظريّة المعرفة، حيث دخلت ـ بفضل منهجها العلميِّ الدّقيق ـ كلّ ميادين العلم والمعرفة الإنسانية، وأصبح من غير الممكن أن نتحدّث عن أمرٍ من أمور المعرفة، إلاّ ونرى للّسانيّات فيه الفضل الأكبر؛ سواء في التوجيه أو المنهج، أو في الموضوع وتوليد الأفكار، وبسبب مكانتها تهافتَت العلوم بتعدّد توجّهاتها عليها، تَستلْهم منها المنهج لتدعيم مواقفها وتَحسينِ نتائجها.

أمّا في الثقّافة العربيّة، فالمتتبِّع لِما هو سائد في الكتابات الأدبيّة واللّغويّة العربيّة؛ يُلاحِظ إقبالاً متزايداً على اللِّسانيّات وفروعها، غير أنّ هذا الاهتمام لا يمكنه أنْ يُخفيَ حقيقة بارزةً مفادها، أنّ الدّرس اللِّسانيّ العربيّ لم يُعطِ بعدُ ما كان متوقعاً منه، على نحو ما حدث في الثقّافة الغربيّة فاللّسانيّات في عموم ثقافتنا ظلّت ذلك المجهول الذي يثير فينا الشكوك، فهذا العلم وعلى الرّغم من مرور أكثر من نصف قرنٍ على دخوله إلى ثقّافتنا؛ يُوصَفُ بأنّه علمٌ لم يبرح مكانه، كون الخطاب اللّسانيّ العربيّ الحديث بتصوّر شامل يُرى بأنّه مقسّم إلى ثلاثة أصناف من الباحثين والمهتمّين، ولكلّ منهم اتّجاهه وقناعته، فالصّنف الأول محافظ على أصوله اللّغوية يرى كلّ محاولة تحديث أو تيسير تعتبر خطرا على تاريخ الأمّة اللّغوي؛ وصنف ثانٍ مجدّد قد أبهرته المناهج الغربية الحديثة فرأى فيها الدّقة والعلمية، فحاول من خلال معايير النّظريات الغربيّة صياغة نظريّة لغويّة عربيّة، وصنف ثالث يتّخذ موقفا توفيقيّا، يحاول المزج بين القديم والحديث، فلا هو متعصّب ولا هو مندفع.

هذا الزخم المعرفيّ أدّى إلى القول بوجود أزمةً في تلقّي هذا العلم ضمنَ ثقّافتنا العربيّة، وكان سببا في ظهور نمط مُستَحدَث من الكتابات اللّسانيّة، يهدف إلى تقييم الكتابة اللّسانيّة العربيّة وتقويمها، وكذا محاولة تقصّي أسباب تردّي وضع اللّسانيات في ثقافتنا اللّغويّة العربيّة، وقد تولّى الكتابة في هذا النّمط عددٌ من النّقاد واللّسانيّين العرب، على غرار اللّسانيّ (الفاسي الفهريّ) و(مازن الوعر) و(عبد السلام المسدّي)، وقد حاول المسدّي تشخيص الضعف الذي أصاب الخطاب اللّسانيّ العربيّ من خلال مجموعة من المؤلّفات تصبّ في هذا المجال، ومنها كتاب (**اللّسانيّات وأسسها المعرفيّة**) الذي أفرد فيه فصلا

كاملا تحدّث فيه عن عقبات البحث اللّسانيّ العربيّ، فالمسدي قدّم تشخيصا علميّا لإشكاليّة تلقي اللّسانيات في الثقافة العربية، ومن هنا نتساءل: ما حقيقة الأزمة اللّسانيّة العربيّة؟ وكيف قيّم المسدّي حصيلة اللّسانيّات العربيّة؟ وما الأسس التي انطلق منها؟

ثانياً– تلقّي الخطاب اللّسانيّ في الثقافة العربية: استقطبت اللّسانيات الكثير من العقول العربية واستطاعت الوصول إلى الفكر العربي الحديث والمعاصر، فاستُقبلت بوعي واستيعاب كبيرَيْن من قِبل الباحثين والمفكّرين، الذين جهّزوا الأرضية المناسبة لنموّ وتطوّر هذا العلم الحديث، فبرزت اللّسانيات كاتّجاه حديث بين علوم اللّغة القديمة وحاولوا نشرها كثقافة لغويّة حديثة، ومن هذا المنطلق قُسِّم الدّرس اللّسانيّ العربيّ زمنياً إلى مرحلتين اثنتين حيث يقول (أحمد قدور): "ويمكن للدّارس أن يتبيّن أنّ واقع اللّسانيات عندنا مرحلتان، امتدّت الأولى من صدور كتاب (على عبد الواحد وافي)علم اللغة مطلع الأربعينيات إلى بدء عقد السبعينات، على حين أنّ المرحلة الثانية بدأت مع السنوات الأولى من السبعينات ولا تزال مستمرة إلى أيامنا هذه [1]" وهذا التّقسيم لا ينفرد به هذا الباحث لوحده؛ فهناك من يشاطره الرأي في ذلك ويتعلّق الأمر بما أوردته (فاطمة الهاشمي البكوش) بقولها: "واللّسانيات العربية عموماً، تصنّف اليوم في حركتين أو نشاطين مختلفين منهجياً هما: نشاط لسانيّ بنيويّ وصفيّ ظهر في مصر تحديداً على شكل جهود فرديّة بعيدة عن نشاط المؤسّسات اللّغويّة القائمة التي رفضت تبنّي هذه الجهود أو الاضطلاع بها وإنشاء وضع لسانيّ من خلالها، ونشاط لسانيّ نشأ في إطار اللّسانيّات التّوليديّة ويتّجه نحو الفكر اللّغويّ التفسيريّ[2]" فقد اختارت الباحثة الاتّجاه بالدّراسة نحو النّشاط اللّسانيّ المبكّر، وهو عمل–في نظرها– لم ينشغل به البحث اللّغويّ المعاصر واستثنت من ذلك بعض الدّراسات والأبحاث، واعتبرتْ أنّ العديد من اللّسانيّين وقعوا في خلط منهجيّ واضح "حين افترضوا أنّ اللّسانيات العربية ترتدّ إلى القرن التاسع عشر(19) وهو بذلك يُدخل في اللّسانيات العربية كلّ البحوث التي تبنّت المنهج التطوّريّ، والفيلولوجيّ، والتأريخيّ، وهو يفترض أنّ اللّسانيات العربية مرّت بأربع مراحل: لسانيّات تطوريّة، ولسانيّات تاريخيّة، ولسانيّات بنيويّة ولسانيّات توليديّة[3]" وهي بالفعل المراحل التي مرّ بها النّشاط اللّسانيّ العربيّ.

ثالثاً–حصيلة الخطاب اللّسانيّ العربيّ: سُئل العديد من الباحثين العرب المبرّزين في مجال الأبحاث اللّغويّة، عن تقويمهم لحصيلة البحث اللّسانيّ في الثقافة العربيّة[4]، بعد مرور أكثر من نصف قرن على الممارسة اللّسانيّة العامّة في الثقافة العربيّة في صيغته الحديثة؛ فكانت إجاباتهم متباينة ولكنّها تكاد تُجمِع

على حقيقة مفادها، أنّ اللّسانيات **العربيّة تشكو وضعاً رهيباً ومأسَاوياً**، بل أدّى الأمر بالكثير منهم إلى القول بوجود إشكالية في تلقّيها، أو تخلّف في اللّحاق بالتّطور الهائل للأبحاث اللّغويّة الغربيّة؛ فاللّسانيات في العالم العربيّ لا تزال حسب رأي منذر عيّاشي "ذلك المجهول الذي يثير فينا ريبة وشكّا وتوجّسا وخوفا، أكثر ممّا يثير فينا نزعة- ولو فضوليّة- لمعرفة موقعنا من واقع الثقافة، والعلم والمعرفة في العالم[5]" لأنّها بقيت حبيسة نفسها، ولم تنفتح على العلوم والمجالات الأخرى، كما هو حال اللّسانيات في الثقّافة الغربيّة، ويضاف إلى ذلك عدم اهتمام اللّسانيين العرب -في كثير من الأحيان- بالتحدّيات المعاصرة التي تعدّ من صميم البحث اللّسانيّ، فشملت أزمة اللّسانيات عند العرب المجالات "النّظرية والمنهج والموضوعات البحثيّة، والجوانب المؤسّسيّة المتّصلة بأقسام تدريس اللّسانيّات وبالأستاذ وبتدريب الطلّاب، كما نجد أنّ العلم لا يزال هامشيّاً، مقارنة مع العلوم الانسانيّة والاجتماعيّة الأخرى بالرّغم من الازدياد المطّرد للمتخصّصين فيه، وبالرغم من الأهميّة المركزيّة لموضوعه، اللغة والمجتمع[6]" فهذا العلم لم يحظَ بعدُ بالأهميّة التي حظي بها عند الغرب، إضافة إلى هذا الطّرح وتمكينا له يرى حافظ اسماعيلي علوي بأنّ ما يميّز اللّسانيّات في ثقافتنا أنّها "تكرّر الأسئلة نفسها، وتطرح القضايا نفسها وما زالت بعض أبجديّات هذا العلم مغلوطة أو شبه مجهولة في سوق التداول، وهذا يجعل الحصيلة ضعيفة مقارنة بما يُنجز في الغرب، إنّها ما تزال في طور الاستهلاك الثقافيّ والمعرفيّ، وما يزال الإنشاء والإنتاج اللّسانيّ لا يغادر منزلة المقدّمات والكتب التّمهيدية[7]".

رابعاً-أزمة[8] الخطاب اللّسانيّ العربيّ: يستهلّ مصطفى غلفان كلامه عن أزمة اللّسانيات العربيّة بجملة من الأسئلة من قبيل: "إذا كانت ثمة أزمة لسانيّات فما طبيعتها؟ وما هي سماتها؟ وما مظاهرها؟ وماهو تأثيرها على الدّرس اللّسانيّ العربيّ الحديث؟"[9] وهي في الحقيقة أسئلة جوهريّة ودقيقة توصل إلى التقصّي الصحيح لمفهوم الأزمة اللّسانيّة العربيّة، خصوصا إذا كان مرتكزها الانطلاق من حقيقة موضوعيّة، "تتمثل في كوْن الدّرس اللّسانيّ العربيّ لم يُعطِ بعدُ ما كان متوقعا منه على غرار ما حدث في ثقافات أخرى، بالرغم من أنّ المدّة التي مرّت حتى الآن على دخول اللّسانيات إلى الثقافة العربية"[10] فالعديد من الكتابات اللّسانيّة في الوطن العربيّ أشارت إلى وجود الأزمة[11]، وحاولت اقتراح بدائل لواقع البحث اللّغوي العربيّ، وبالرّغم من ريادة أبحاثها؛ إلاّ أنّ بعض هذه الأعمال ظلّ بعيدا عن الهدف المنشود... لأسباب منها الافتقار إلى البعد النظري والمنهجيّ...وعدم دمجها إشكال اللّسانيّات في إطار وضعيّة العلوم الإنسانيّة في الوطن العربيّ[12] فمصطلح الأزمة في اللّسانيات العربيّة له خصوصياته كونه يختلف عن الأزمة

في النّظريات العلميّة، فأزمة اللّسانيّات هي أزمة تلقٍّ، وليست أزمة تراكم وتطوّر، وهي أزمة ترتبط بالعوائق والصعوبات والإشكالات التي أدّت بقاء الخطاب اللّسانيّ العربيّ حبيس الحدود الجغرافية والإقليمية.

وما يمكن استنتاجه بناءً على الملاحظات السّابقة "وجود اختلاف بين وضع اللّسانيّات في الثقّافة العربية، وبين مفهوم الأزمة في النّظريات العلميّة، فعدم الوصول إلى أزمة صريحة يقتضي وجود إشكالات تحول دون تلقي هذا العلم، وحتى إن صحّ الحديث عن أزمة فإنّ إدراك حقيقتها لا يمكن أن يكون إلاّ بجعلها أزمة انطلاق لا أزمة نمو"[13] فالخطاب اللّساني العربيّ يعاني أزمة انطلاق وتلقٍّ، ذلك أنّ الثقافة اللّغويّة العربيّة لم تستطع فهم هذا العلم ولا تطبيقه على البحوث اللّغويّة العربيّة، ممّا أوقع اللّسانيّات العربيّة في أزمة حقيقيّة سبّبتها عوامل عدّة وظروفٌ شتّى سنأتي على بيانها في العنصر الموالي.

خامساً–أسباب أزمة اللّسانيّات العربيّة: لقد توصّلنا في العنصر السابق إلى القول بوجود أزمة في تلقّي اللّسانيّات في الثقّافة العربيّة، وإنّ المنطق يقتضي توضيح الأسباب والعوامل التي أدّت إليها، وقد اجتهد كثيرٌ من الدّارسين والباحثين في تحديدها ضمن عدّة نقاط سنذكر أهمّها:

1–اللّسانيّون وأزمة اللسانيّات: لا يختلف جمهورُ الباحثين بأنّ البحث اللّسانيّ في الثقّافة العربية يعيش واقعاً متردّياً ومأساويّاً، والقسمة العقليّة تقتضي أن يُسهم اللّسانيّون العرب في إيجاد الحلول المناسبة لهذا الواقع "ورغم ذلك لا يأبه اللّسانيّون العرب لهذا الوضع، وكأنّ الأمر لا يعنيهم من قريب أو بعيد، إنّ وضعاً من هذا القبيل أساء إلى اللّسانيّات، وإلى اللّسانيّين أنفسهم، حيث فسح المجال لتداول الكثير من المغالطات في الساحة اللّسانيّة العربيّة "[14] إضافة إلى ذلك يُعدّ الصّراع السّمة الغالبة على العلاقة بين اللّسانيين العرب، "وهو صراع ابتعد في كثير من الأحيان عن حدود اللّياقة، وتجاوز اللّسانيّات إلى التّلاسن، وقد ترتّب عن هذا عزوف اللّسانيّين عن كتابات بعضهم، وحتى وإن حصل نوع من الإقبال أحيانا، فإنّه لا يكون إلاّ بنوايا مبيّته تهدف إلى النّيل من الكاتب ومن قدراته العلميّة والمعرفيّة لاغير."[15] وهذا ما يؤكّد غياب ثقّافة المجموعة اللّسانيّة بين اللّسانيّين العرب، فاللّسانيّون المشارقة لا يقرأون لنظرائهم من المغاربة والعكس كذلك، "فمردّ هذا الوضع إلى أنّ الباحث في اللّسانيّات يكاد يعيش في شبه عزلة عن غيره من الدّارسين، فلا يريد سماع سوى ما يعجبه ويروق له من مريديه وأتباعه المباشرين، أمّا العلاقة مع الآخر...فإنّها غالباً ما تكون غير واضحة، فلا تعاون ولا تشارك ولا تشاور."[16] فتنامى بين اللّسانيين عقدة تفوق، أو نوع من الأستاذية المفرطة والمبالغ فيها لدرجة أنّها أصبحت مَرَضِية "فلم تستطع التنظيمات اللّسانية التي أحدثت في هذا القطر أو ذاك أن تخترق الحدود القُطريّة وتجمع الباحثين العرب

المختلفي الآفاق التصوّرية للنّظر في قضايا تخطيطيّة"[17]. هذا ما ولّد شبه قطيعة نمت بين نخبة من الباحثين والروّاد في اللّسانيّات وبين جمهور الطّلاب والباحثين الشباب، وعدد من المثقّفين الذين لم يصلهم من اللّسانيات إلّا النّزر اليسير، وربّما يعود ذلك أيضا إلى اللّاتواصل القائم بين علومنا وعلمائنا، وإلى عدم اعتبار اللّسانيّات علماً ضروريّاً، بل ومدخلا لتصحيح النّظام الدّاخليّ لعلومنا"[18] إنّ هذه القطيعة ألقت بظلالها على تطوّر البحث اللّسانيّ العربيّ، وأسهمت في تردّي وضعه ويضاف إلى ما سبق، والذي يعدُّ من أهم أسباب الموضوعيّة التي تحول دون استثمار منجزات الدّرس اللّسانيّ في الثقّافة العربيّة بالشّكل المطلوب.

2-أسباب متعلّقة بموضوع الدّراسة: تنقسم العلوم في الغالب، إلى علوم تجريبيّة وعلوم نظريّة، واللّسانيّات بحسب التّقسيم السّابق يغلب عليها الجانب النظريّ "وهذا يصدق على اللّسانيّات النظريّة بالفعل فجانبها الإجرائيّ ليس مقصودا في حدّ ذاته، وليس هو الهدف النّهائيّ الوحيد للنّشاط اللّسانيّ...فالمفاضلة بين الأوصاف البنويّة للّغات الطبيعيّة المبنيّة داخل نماذج لسانيّة في مستويات قوالب لا تقوم على أساس كفايتها الملاحظيّة فقط بل تقوم كذلك على أساس الأبعاد المحوريّة للكفاية، وضمنها الملاحظيّة"[19] فمن خلال القول السابق تظهر الخلفيّة الفلسفيّة بوضوح في الدّرس اللّسانيّ، فمختلف النّظريات والمدارس اللّسانيّة تستند إلى خلفيّة فلسفيّة تبرّر مقولاتها فالاتّجاه البنويّ مثلا بمختلف مدارسه يستند إلى الفلسفة التجريبيّة التي تدرس الظاهرة اللّغويّة كما هي باعتماد المدوّنة أو المتن اللّغويّ، معتمدا في ذلك على الوصفَ، أما الاتّجاه التّوليديّ التحويليّ فهو يستند إلى الفلسفة العقليّة، ولا يهتمّ بما ينتجه المتكلّم بل بما يملكه في عقله، معتمدا على الحدس لكشف ذلك، فاللّسانيّ الذي لا يهتمّ بالخلفيّات الفلسفيّة لكلّ نظريّة لسانيّة، ولا يمكنه الكشف عن التباينات الجوهريّة بين مختلف النّظريات، لا يستطيع بالضرورة فهم هذه النّظريات، ولا الوقوف على كنهها، ولعلّ هذا ما وقع فيه معظم اللّسانيّين العرب، بسبب عدم تتبّعهم للأصولَ الفلسفيّة للنّظريّات اللّسانيّة أو تجاهلهم لها في كثير من الأحيان، ما أدّى إلى الفهم الخاطئ للنّظريّات اللّسانيّة، ذلك أنّ معرفة اللّسانيّ بمختلف الفلسفات التي تؤطّر النّظريات اللّسانيّة ليس أمرَ رفاه بل هو واجب، لمواكبة البحث اللّسانيّ العام للمساهمة في إنتاج المعرفة اللّسانيّة.

أ-الموقعة الخاطئة للّسانيّات: ما من معرفة تدخل النّظام المعرفيّ؛ إلّا ويتّخذ لها أصحابها موقعا دقيقا حتى لا تبدو ناشزة عن العلوم المجاورة لها، لأنّ كل معرفة لها بنيتها الخاصّة وكذلك مجموعة العلوم، تشكّل فيما بينها بنية مشتركة، فيقول دي سوسير في هذا الصّدد: " يمكننا إذن أن نتصوّر علما يدرس الإشارات

في كنف الحياة الاجتماعيّة ويشكلّ جزءا من علم النّفس الاجتماعيّ وبالتالي من علم النفس العام[20]"
ومن هذا نتساءل هل تبوّأت اللّسانيّات مقعدها ضمن بنية المنظومة المعرفيّة العربيّة؟

أغلب الظنّ أنّ اللّسانيّات في الثقافة العربيّة أُنزلت في غير موقعها، وكان التّعامل معها تعاملا حدسيّا، فوقع الخلط بينها وبين العلوم الأخرى مثل النّحو والصرف والبلاغة وفقه اللّغة، لكون موضوعها يتمحور حول اللّغة، فعمد اللّسانيّون العرب إلى تسمية كلّ نشاط لغويّ(جهودا لسانيّة) قديما كان أو حديثا، ولا شكّ أنّ المنطق العلميّ السويّ يرفض هذه الممارسات التي تصبّ ضمن ما يصطلح عليه بفوضى المصطلح، إذْ لا يمكن تقبّل إطلاق تسمية لسانيّات على الجهود اللغويّة التي ظهرت قبل انبثاق اللّسانيّات بحدّ ذاتها، حتى وإن اشتركت معا في موضوع الدّراسة؛ لأنّ لكل علم منطلقاته وفلسفته وروّاده، فالخلط المنهجيّ الذي وقع فيه اللّسانيون العرب؛كان سببا جوهريّا في تأخير تطوّر البحث اللّغويّ العربيّ.

ب–الجاهزيّة وعدم التّمحيص: يتعامل معظم اللّسانيّين العرب مع نتائج البحث اللّسانيّ الغربيّ دون معرفة بمقدّماتها المنهجيّة، فاللّسانيّات تمّ استيرادها ناضجة دون معرفة بأصولها ولا بمراحل تطوّرها، ما جعل التعامل معها كمسلّمات غير قابلة للنّقاش والمحاورة، وكلّما جدّ جديد يتمّ استيراده جاهزاً، وهذا ما جعل الكتابة اللّسانيّة العربيّة غير منخرطة في البحث اللّسانيّ العالميّ ولا تشارك في إنجازه.

ج–غياب التّحيين والمواكبة: يسير البحث اللّغويّ عند الغربيّين بوتيرة متسارعة، مقارنة بنظيره في العالم العربيّ الذي يعرف تباطؤا كبيرا، فالجامعات الغربيّة تنتج كمّاً هائلا من النّظريّات اللّسانيّة بوتيرة سريعة لا يتمّ تناقله إلى العربيّة، وذلك لضعف حركة التّرجمة إلى العربيّة، فالباحث العربيّ لا يزال يعاني من هذا الأمر، "إنّه يرى كل يوم أمام عينيه سقوط شلالات من الكتب، تحوي على أطروحات جامعيّة دراسات، مناهج، نظريات...وهي مستمرّة متدفقة، لا تكفّ عن الاتّساع، بحيث يقف هنا أيضا حائرا لا يدري ما يختار وما ينتقي، وما يأخذ وما يدع وما يتبع وما يهمل، بالإضافة إلى أنّه مسلح بعقل السّجال أهم صفاته المميزة"[21] فكلّ هذا أدّى إلى عدم القدرة على المواكبة والتّحيين.

ويرتبط هذا الإشكال بالمستوى المعرفيّ لكثير من اللّسانيّين العرب، الذين لا يواكبون ما يطرأ على الدّرس اللّسانيّ من تطوّرات نظريّة هامّة، ويتّضح ذلك مثلا في النّدوة التي عقدتها منظّمة اليونيسكو سنة 1987م حول تطوّر اللّسانيّات في البلدان العربيّة، حيث إنّ كثيرا من اللّسانيّين العرب المشاركين في هذه الندوة لم يتمكنوا من متابعة بعض البحوث اللّسانيّة لا سيما بحوث المغاربة، وللإشارة فإنّ المشاركين في هذه الندوة يعدّون من صفوة اللّغويّين العرب المحدثين وأكثرهم تأليفا، ولعلّ هذا السّبب أدّى بدوره إلى

جمود المقرّرات الجامعيّة في مادة اللّسانيّات وتمركزها على ما قدّمة (دي سوسير) والمدرسة الوظيفيّة، والنماذج الأوليّة من النحو التوليديّ ومعظم الكتب والأبحاث التي يتتلمذ عليها أكثر المتخصّصين الآن "كتبها روّاد الدراسة اللّسانيّة من المصريّين الذين عادوا من البعثة إلى بريطانيا في أواسط الخمسينيّات الميلادية وكان هؤلاء العائدون قد تدربوا على الدّرس اللّسانيّ في إطار المدرسة الوصفيّة التي كانت مزدهرة في تلك الفترة. وبعد أن عادوا كتبوا كتبهم الأولى مستندين إلى خبرتهم التي اكتسبوها هناك، ولم يطوّروا من أنفسهم بل بقوا إلى الآن على ما تعلّموه في الخمسينيّات...ومن هنا فإنّ تخلّف البحث اللّساني سببه عدم مواكبة أولئك الروّاد للتطورات الحثيثة التي بدأت في منتصف الخمسينيّات بقيادة تشومسكي"[22].

سادسا–أزمة اللّسانيّات العربيّة في تصوّر عبد السلام المسدّي: تميّزت أعمال عبد السلام المسدّي بثراء كبير متنوع؛ فلم تقتصر بحوثه على جانب واحد فحسب؛ بل تراه يبحث في كل مناحي اللّغة والمعرفة، فتجده تارة عالما منظرا وتارة أخرى ناقدا محلّلا، ومن بين الأعمال النّقدية التي قدّمها؛ تقييمه لحصيلة الخطاب اللّسانيّ العربيّ، فهو ينطلق في دراسته من أسس علميّة واضحة المعالم، بعيدة عن الأهواء الذاتيّة، وقد ساعده في ذلك اطّلاعه الواسع على اللّسانيات الغربيّة والعربيّة، وقد بيّن موقفه تجاه البحث اللّسانيّ العربيّ في الفصل الأول من كتابه (اللّسانيات وأسسها المعرفيّة) حيث قال: "يلاحظ باستغراب وحيرة تخلّف ركب الفكر العربيّ في حلبة علوم اللّسان، وقد كان يهون أن نبقى مقصّرين في ميدان وضع النّظريات اللّسانيّة وابتكار المناهج الاختباريّة فيها لو أنّنا على الأقل قد نشطنا إلى توفير الثّقافة اللّسانيّة في جامعاتنا ومؤسّساتنا العلميّة، ولكن جوهر القضيّة يكمن في أنّ درجة وعينا بخطر علوم اللّسان هي نفسها ما زالت في خطاها الأولى"[23] فمن خلال القول السّابق يظهر جليّا أنّ المسدّي يقرّ بحقيقة تخلّف الأبحاث اللّسانيّة العربيّة مقارنة بنظيراتها في الثقافات اللّغويّة الغربيّة، بل يذهب المسدي إلى أبعد من ذلك جاعلا مسألة التخلّف غير مقتصرة على الجانب اللّسانيّ فحسب؛ بل هي مسألة تعطّل في الفكر العربيّ بصفة عامّة، فلم يستطع هذا الفكر أن "يقدّم للإنسانيّة في حقول المعرفة اللّسانيّة عطاءه الخصيب الذي قد يحرّك به مسار التّفكير الحديث"[24] فقد تفطّن المسدّي لقضيّة صعوبة تلقّي اللّسانيّات في ثقافتنا العربيّة، معتبرا أنّ سبب الصعوبة راجع إلى عقبات عديدة ومتشعبة أدّت إلى تأزّم الوضع اللّسانيّ العربيّ.

سابعا– المرجعيّة الفكريّة عند عبد السلام المسدي:

يستفرد كلّ مفكّر بمرجعيّة فكرية خاصّة به، تمثّل توجّهه الفكري وتؤطره، وتعرّف المرجعية الفكريّة بأنّها "الإطار الكلّي والأساس المنهجي، المستند إلى مصادر وأدلّة معينة لتكوين معرفة ما أو إدراك ما يُبنى عليه

قول أو مذهب أو اتّجاه يتمثّل في الواقع علما أو عملا[25]" فهي الفكرة الأساسيّة والجوهريّة التي تؤسّس القاعدة الرئيسة لكل المعارف والأفكار باختلاف توجّهاتها، إذْ يستحيل منطقيا أن تنبثق النّظريات والأفكار من العدم، وتجدر الإشارة إلى أنّ المفكّر أو العالم قد يصرّح بمرجعيته الفكريّة وانتمائه الفلسفي أو العقدي، كما يمكنه إخفاء مرجعيته وعدم التّصريح بها لكنّها تظهر من خلال كتاباته وإنتاجاته الفكرية، ومن هذا المنطلق نجد عبد السلام المسدّي يصرّح بمرجعيته الفكريّة واللّغويّة وهذا ما سنراه في العنصر الموالي.

أ–المرجعيّة اللّسانيّة: يُعتبر عبد السلام المسدّي من اللّسانيين العرب المحدَثين الذي تخصّصوا في المجال اللّسانيّ، بشقّيه النّظري والتطبيقي وخير دليل على ذلك كثرة الإنتاجات الفكرية في هذا المجال الخصب، ولقد صرّح المسدي بمرجعيته اللّسانية بنفسه فقال: "وإذْ قد كتب على بعضنا أن يكون منذ ثلاثة عقود جزءا من منظومة ثقافية مرجعها البحث اللّغوي الحديث، ومستندها الانتماء إلى المؤسسة الأكاديمية أولا وأخيرا[26]" وهنا تظهر جليّا الأهميّة التي تحظى بها اللّسانيات في فكر المسدي، من خلال استلهامه لنظريات ومناهج تخدم الواقع اللّغويّ العربيّ الحديث فمن أقواله في هذا الاتّجاه نذكر: "ومن المعلوم أنّ اللّسانيات قد أصبحت مركز الاستقطاب بلا منازع، فكلّ تلك العلوم أصبحت تلتجئ في مناهج بحثها وفي تقدير حصيلتها العلميّة إلى اللّسانيات وإلى ما تنتجه من تقديرات علميّة وطرائق في الاستخلاص[27]" لذلك يعتبر المسدي من اللّسانيين العرب القلائل الذين أدركوا أهميّة اللّسانيات في بناء المعرفة العلميّة، فهي مفتاح كلّ حداثة بمناهجها ونظرياتها، كما أنّ جلّ العلوم تستند إلى اللّسانيات وتستلهم منها التقديرات العلمية والطرائق المميزة في البحث والاستنباط، ومن هنا نخلص إلى أنّ المتبّع للمرجعيّة اللّسانيّة الحقيقية يميل إلى الموضوعيّة والدّقة العلمية، وهذا ما نلاحظه على أعمال المسدي اللّسانية والنّقدية.

ب–المرجعيّة التّراثيّة: تعتبر قضية التراث من القضايا الشّائكة والتي تشهد صراعا فكريا بين أنصار التّراث (السلفيين) وبين أنصار الحداثة، وما يلاحظ على عبد السلام المسدي موقفه التوفيقي بين التراث والحداثة ولقد بيّن ذلك في قوله: "إنّ الفكر الغربي قد شقّ طريقه من المعاصرة إلى الحداثة، دون قفز مولد للقطيعة، وقد تسنّى له ذلك بفضل انصهار المادة والموضوع في تفكير العلمانيين، فكان الصراع المنهجي خصيبا إلى حدّ الطفرة أحيانا، لكن المنظور العربي ما يزال يتصارع والحداثة من حيث هي موقف مبدئي[28]" فالمسدي يرى بأنّه لا بُد من الاستناد إلى التراث وإعادة قراءته وتمحيصه، كما لا يجب إخضاع

التّراث إلى المقولات والأفكار الغربية دون تمحيص. كما دعا المسدي إلى مبدإ استلهام التراث العربي نظرا لقيمته الكبيرة، إضافة إلى كونه مظهرا من مظاهر تطور اللّسانيات الغربية الحديثة، وهذا ما أكّده بقوله: "على أنّ مبدأ استلهام التراث يتنزّل لدى العرب في عصرنا منزلة مولد التأصيل الفردي الذي بدونه يظلّ الفكر العربيّ سجين الأخذ محظورا عليه العطاء[29]" فالمسدي من هذا المنطلق يشدّد على الأهمية القصوى للمرجعيّة التّراثيّة، ويرى بأنّ كلّ تطور في شتى مجالات العلوم يمرّ عبر بوّابة التّراث، إلّا أنّ هدف المسدي من العودة إلى التراث ليس مقصورا على إحيائه أو تقديم جوانبه المشرقة فحسب؛ بل نجده يدعو المسدّي إلى "إقامة حوار معرفي مع هذا التراث، وأن نكون في حوارنا مسلحين بكل مقوّمات المناعة ومحصّنين تجاه كلّ العقد النّفسية والمركبات الحضارية سواء منها مولّدات الغرور والاستعلاء أو مولدات النقص والإنطواء، وبهذا المنطلق الحضاري نؤكّد أنّ التراث العربيّ جزء من التراث الإنساني...ومن الإجحاف أن يظلّ موصد الأبواب أمامهم، فبقراءتنا للتراث قراءة نقديّة واعيّة لا نقدّم فحسب خدمة لميراثنا ولا نقدّم جميلا لذواتنا فقط، وإنما نغدق على الفكر الإنسانيّ بإسهام غزير فتتحول علاقتنا بالمعرفة الحديثة تحوّلا طبيعيا من مركز الخصم إلى مركز النّظير[30]" ممّا سبق نستطيع القول بأنّ المرجعية التراثية للمسدّي تتميّز بالانفتاح وتبتعد كثيرا عن التقديس والمغالاة، ويظهر ذلك في دعوته لما أسماه "حداثة التراث" أيْ أنّ التراث يصبح قيمة مضافة إذا ابتعدنا عن دائرة التّمجيد والتّقديس واقتربنا أكثر إلى حيّز الوعي والتفاعل والانفتاح.

ثامناً–خصائص الخطاب اللّسانيّ عند عبد السلام المسدي:

1–الحياد اللّغويّ النّسبيّ: يُقصَد به كلّ استعمال لغويّ غير مُنزاح إلى جوانب ثانويّة، ممّا يجعله كلاما أدبيّا، فلغة الخطاب اللّسانيّ لغة علميّة لا تحتمل تأويلات معنويّة أو تعابير مجازيّة؛ لأنّها خطاب علميّ والخطاب العلميّ "يقتضي توظيف لغة تستعمل الدّقة والوضوح والإيجاز التي لا تقبل الالتباس والإيحاء والإبهام، ومن هنا يكون التّركيز أولا على اللّغة العلميّة التي تميل إلى الدّقة التي تعصم من الخطأ[31]" ومن مقتضيات الحياد النّسبيّ عدم الميل إلى جانب معيّن في التّحليل، كالميل مثلا لمدرسة معيّنة أو إلى اتّجاه دون آخر أو إلى لسانيّ معيّن، ومن هنا تميّزت كتابات عبد السلام المسدي بهذه الخاصيّة العلميّة، وهذا ما أهّل لغته لتكون لغة علميّة.

2–الموضوعيّة: تُعتَبر هذه الخاصيّة هامّة في جميع البحوث والأعمال العلميّة، وهي خاصيّة منهجيّة يُفترض وجودها في كلّ كتابة لسانيّة، غير أنّها لا تتحقّق إلّا إذا تحلّى صاحب الكتابة بالموضوعيّة وابتعد ما أمكن عن الذّاتيّة، فشرط الموضوعيّة بالنّسبة لأيّ ناقد يؤدّي إلى "تغييب منشئه وكل ما له علاقة بحالة

خاصّة، أو بلحظة زمنيّة محدّدة، وأنْ يتموقع داخل اللّازمان واللاكونيّة [32]" والحقيقة أنّها موجودة في العديد من الكتابات النّقديّة العربيّة بدرجات متفاوتة كونها خاصيّة نسبيّة، وتعتمد جودة البحث على حضورها وعدمه، فالذي رأيناه عند عبد السلام تناولُه للعديد من المواضيع اللّسانية بموضوعية، بعيدا عن كلّ نزعة عرقية أو قبلية أودينية، ولعلّ السبب في رأينا تمثّله مقولة اللّسانيات التي توجب عدم التفاضل بين اللّغات.

3-التّحليل: يُعتبر التّحليل من الآليات والميكانيزمات التي تُستخدم في الدّراسات الوصفيّة بصفة خاصّة، وتستمدّ هذه الخاصيّة أهميّتها من خلال ما يستطيع الدّارس التوصّل إليه بعد توظيفها؛ فهي تعطي نتائج أكثر دقّة من الآليات الأخرى، لذلك نجد جلّ الكتابات النّقديّة تستخدم التّحليل العلميّ الدّقيق لتعطي مصداقيّة لنتائجها في نهاية كلّ دراسة، ومن هذا المنطلق نجد عبد السلام المسدي يتجاوز الأسس التقليدية للتحليل والمقارنة، فقد تمكّن من تفكيك بنية التراث الفكري العربي عبر رؤية بنيوية محايثة، ابتعد فيها عن المقولات والأحكام السّطحية التي غرق فيها العديد من اللّسانيين أمثال: سعد مصلوح وغيره، فاكتشَف بتحليله "تخلص الفكر اللّغوي العربيّ في أعماقه من رقّة المكتوب وسلطان المعيارية وبين ارتقائه إلى منزلته وذلك ذروة الحداثة اللّسانية[33]".

4-قابليّة الإبطال والدّحض (Falcification): يقصد به قابليّة الكتابة اللّسانيّة النّقديّة للتّجاوز أو الإبطال من قبل كتابات لسانيّة نقديّة أخرى، فكلّ كتابة نقديّة مهما بلغت كفاءتها التّفسيريّة وقوّة الفرضيات المنطلق منها، فذلك لا يعني أنّها تملك حجيّة النّظر القاطعة، فلولا وجود هذه الخاصيّة لما ظهرت كتابات نقديّة متعدّدة، لأنّ كلّ دراسة تبرهن على خطإ الدّراسة التي قبلها وبذلك يستمر العلم ويتطور، ولا شكّ أنّ العديد من الكتابات النّقديّة العربية ترحّب بكلّ نقد يوجّه إليها بل تدعوا لإكمال ما بدأته ولا تدّعي في جلّ الأحيان الأسبقيّة، وهذا ما لاحظناه على أعمال المسدي اللّسانية والنّقدية؛ فهو لا يدّعي أسبقيته في مجال اللّسانيات أو النّقد، فعدم قابلية العلم للإبطال والدّحض يجعل منه مسلّمة، والمسلّمة لا تناقش ولا تحلّل بل لا تعتبر علما أصلا.

تاسعاً-أسس التحليل اللّسانيّ عند عبد السلام المسدي:

ينطلق عبد السلام المسدي في دراسته اللّسانيّة من أسس وقواعد نظريّة واضحة، وهي دليل يعبّر على قوة الجانب المنهجي والنّظري لهذا الباحث، فكلّما كانت الأسس مضبوطة كانت نتائج التحليل أقرب إلى الصحّة والموضوعية، وفي النقاط التّالية سنحاول تسليط الضوء على أهمّ الأسس المستخدمة من طرف المسدّي في كتاباته اللّسانية وهي كالتالي:

1–الاستناد إلى دراسة التّراث العربي القديم: أشرنا سابقا إلى أهميّة التراث العربي عن عبد السلام المسدّي، فهو يعتقد أنّ التطوّر اللّغوي العربيّ لا يتمّ بالقطيعة مع التراث اللّغوي القديم؛ بل بإعادة استنطاقه وتحليل ودراسته دراسةً علميّة واعية بعيدة عن كلّ الأحكام المعيارية المسبقة، سواء أكانت بالتمجيد أو بالتحقير والتجاوز، فالنّظرة الصحيحة للتراث اللّغوي حسب المسدي يجب أن تكون نظرة علميّة موضوعية لأنّه أساس الانطلاق نحو نظرية لغوية عربيّة.

2–الاعتماد على آليتي الوصف والتحليل: يعتمد المسدي في دراساته اللّسانية على الوصف والتحليل كأساس من أسس المقاربة اللّسانية، وهو بهذا يدرس اللّغة بغرض الكشف عن حقائقها بطريقة موضوعيّة، في زمان ومكان محدّدين، معتمدا على آليات معينة منها تحديد الظاهرة، وتحليل الظاهرة، ثمّ نقد الظاهرة، وفي الأخير التقعيد للظاهرة.

3–الاعتماد على المنهج التاريخي: إذا كانت دراسات المسدي اللّسانية تعتمد على وصف الظاهرة اللّغوية وتحليلها؛ فإنّ المسدي لا يهمل المنهج التاريخي ولايقلّل من أهميته، فنجد بأنّه يعتبره وسيلة هامّة وأساسا متينا يستحضر به الموارد المعرفيّة القديمة، فكثيرا ما يعود الباحث إلى الأقوال التّراثية محاولا تحليلها واستنطاقها كما هو الأمر بالنسبة لمصطلح (المواضعة) فيكون الأساس الامثل للوصول إليها استعمال المنهج التاريخي.

4–التفريق بين اللّغة والكلام: يلاحظ على عبد المسدّي التفريق بين اللّغة والكلام وهذا الأساس واضح في اللّسانيات المعاصرة، فاللّغة عند المسدي هي مكسب إنسانيّ اجتماعيّ يقوم على مقدّرات صوتية وتركيبية تختلف من بيئة إلى أخرى، أمّا الكلام فهو القدرة المجسّدة للمكتسبات اللّغويّة، وبعبارة أخرى هو الممارسة الفعليّة المحقّقة للتواصل اللّغوي.

عاشراً–عقبات البحث اللّسانيّ العربيّ: يُعدّ (عبد السلام المسدّي) من النّقاد القلائل الذين أسهموا في النّتاج اللّسانيّ العربيّ ممارسة ونقدا، فلقد أبدى (المسدّي) اهتماماً واضحاً بحصيلة الكتابة اللّسانيّة العربيّة وما يعترضها من عقبات، محاولاً الكشف عن الأسباب التي أوجدتها فوضع تصوّراً دقيقاً لواقع البحث اللّغويّ العربيّ الحديث، فقد حظي بأهميّة بالغة ضمن ما يُكتَب في مجال النقد اللّسانيّ، حيث "تأتي أهميّة تصوّر المسدّي، من حيث إنّه يطرح أسئلة هامّة حول واقع هذا البحث وما يعترضه من صعوبات سواء على المستوى النّظريّ أم المستوى المنهجيّ أم المستوى التطبيقيّ، وهي أسئلة تستحقّ كل تقدير لشجاعة صاحبها في عرض وجهة نظره"[34] ويستهلّ (عبد السلام المسدّي) حديثه عن عقبات البحث اللّسانيّ

العربيّ، بالحديث عن الوضع الحرج للسانيّات في الجامعات العربيّة، فهي حسب رأيه لا تواكب التطوّرات العلميّة الحاصلة في مجال اللّغويّات العالميّة، ولعلّ هذا ما ألقى بظلاله على واقع البحث اللّسانيّ العربيّ، وهذا الوضع المقلق للّسانيّات في الثقافة العربية أرجعه (المسدي) إلى عدة عوائق –صعوبات– لعلّ أهمها:

1–تقديس اللّغة العربيّة: أوّل ما أشار إليه (المسدّي) كسبب مباشر لأزمة البحث اللّسانيّ العربيّ؛ هو الشّعور باكتمال علوم اللّغة عند العرب "فيكاد يجزم النّاظر بأنّ العرب بين قديمهم وحديثهم قد أتوا كليّا على لغتهم جمعا وتمحيصا ثم دراسة وتنظيما...فمن هذا الواقع الحضاريّ المعرفيّ نشأت لدى العربيّ رؤية من القداسة تجاه لغته...كما نشأ سياج من المحظورات ترسّخت بموجبه عُقد الاستغناء"[35] أي الاستغناء عن النّظريات اللّغويّة الغربيّة التي لا تمتّ بصلة إلى اللّغة العربيّة وإلى التّراث بصفة عامّة.

إنّ نظرة فاحصة لما سبق ذكره يُظهر جليا أنّ (المسدّي) يؤمن إيمانا راسخا بمبدإ عدم التفاضل بين اللّغات؛ أي إنّ اللغات الطبيعيّة في نظر اللّسانيات الحديثة لا فرق بينها سواء كانت لغة متحضّرة أو لغة بدائيّة أو لهجة مغمورة، أو حتى اللغات المتعلّقة بالنّصوص المقدّسة، لأنّ هدف اللّسانيّ وصف اللّغة كما هي في الواقع دون أحكام مسبقة.

2–التصوّر الخاطئ لموضوع اللّسانيات: فُهِمت اللّسانيات فهماً خاطئاً، حيث حُصِر في علم الأصوات "ولقد صادف أنّ جانب الأصوات قد كان من أدقّ ما ضبطه العرب في علومهم اللّغويّة، ولما كان الوجه التشريحيّ من علم الأصوات ثابتا قارّا لا يتغيّر من لغة إلى أخرى إلّا في ضبط خصوصيّات السلم الإنجازيّ...فإنّ الرأي الماقبليّ قد تدعّم لدى العربيّ إجمالا وتخمينا بما يوحي له بالكفاف والغناء عن اللّسانيات[36]" إنّ حصْر اللّسانيّين العرب موضوع اللّسانيات في علم الأصوات فقط مغالطة كبيرة، لأنّ اللّغة عدّة مستويات (الصوتيّ، الصرفيّ التركيبيّ، الدلاليّ) كلّها متكاملة مع بعضها، وما من شك في أنّ دراسة مستوى لوحده يُعدّ نظرة جزئيّة للّغة.

3–المعركة بين دعاة الوصفيّة ودعاة المعيارية: يركّز على ما لابسها من خلط منهجيّ وتحريف مبدئيّ تولّدت عنها مجموعة من المشاكل الزائفة أربكت دعاة المعياريّة وأرهقت أنصار الوصفيّة، فاستنزفت طاقات هؤلاء وأولئك، وقد ساهم في خلق عقدة الإشكال كل من اللّسانيّين دعاة الوصفيّة، وفقهاء اللّغة دعاة المعياريّة، فلا أَنصفَ العربيّة من ظنّوا أنّهم حرّاسَها ولا خدم اللّسانيات من انبروا روّاداً لها[37] فالمعركة التي يقصدها (المسدي) من وراء هذا القول هي بين أنصار الأصالة وأنصار الحداثة.

4–اعتقاد الكثير من الباحثين أنّ موضوع اللّسانيات هو اللّهجات: على الرغم من أنّ اللّسانيات ترفض تصنيف اللّغات على سلّم معياريّ واعتبرت الكلام البشريّ هو مدار علم اللّسان، إلاّ أنّ ازدهار دراسة اللّهجات في البيئة العربيّة حسب (المسدّي) قد وظّفه بعض المستشرقين وبعض اللّسانيّين العرب توظيفاً خرج عن مقاصده العلميّة إلى مقاصد سياسيّة وأيديولوجيّة، ويَرى أحد الباحثين أنّ هذا العائق يندرج حقّا في صميم البحث اللّساني[38] من حيث إنّه عائق تترتّب عنه نتائج نظريّة ومنهجيّة في اللّسانيّات العربيّة؛ أي إنّه عائق صوريّ أو داخليّ وفق تصوّره الشخصيّ، حيث ينتج عنه غياب تحديد موضوع الدّرس اللّسانيّ العربيّ الحديث.

5–الكتابة باللّغة الأجنبيّة: يتمثّل هذا السبب في رغبة الكثير من اللّسانيّين العرب المحدثين الكتابة بلغة أجنبيّة، وتكاد تكون هذه الظاهرة عامّة، ولهذه الظاهرة عدّة أسباب في نظر الباحث أهمّها:

أ– الاعتقاد بأنّ اللّغة العربيّة غير قادرة على احتواء ومواكبة اللّسانيّات، فالذي يعتقد بهذا الزعم فهو في نظر الكاتب" إمّا قاصر الظنّ وإمّا غير مخلص السريرة"[39].

ب– التذرّع بافتقار العربيّة للمصطلحات وعدم توحدّها.

ج– الرغبة في الكتابة لمجموعة من ذوي الاختصاص ولا سيما لغير العرب.

إضافة إلى العوامل السّالفة الذّكر، يورد (المسدّي) عامِلَين مهميّن أسهما في تكريس أزمة البحث اللّغويّ عند العرب وهما:

1. رغبة بعض اللّسانيّين العرب عن مواكبة ما يكتبه الآخر ولا سيما باللّغة العربيّة، وقد يكون سبب هذه الظاهرة؛ كثرة الكتابات التي لا يقصد بها إلا التّعريف بالعلوم اللّغويّة، وتقديمها بتيسير يضجر منه أهل الخاصّة، فكثرة الكتابات التيسيريّة وإن كان وجودها يكتسي أهمية بالغة؛ إلّا أنّ طغيان التّأليف فيها يمكن أن يرجع بالسّلب على تلقّي الدّرس اللّسانيّ في الثّقافة العربيّة[40].

2 . قصور الأبحاث النّظريّة التي تقتصر على جانب التعريفات ممّا يتصل بحدّ العلم وضبط موضوعه ورسم خطط منهجه، ونتج عن ذلك اختفاء أبعاد البحث اللّغويّ المعاصر، وبعد عرض العوائق التي أوردها (المسدّي) والتي سردناها باختصار، يرى أحد الباحثين أنّها "تجسّد جوانب هامّة من واقع البحث اللّسانيّ في الثّقافة العربيّة المعاصرة؛ لكنّ جزءا من هذه العوائق يظلّ ذا طبيعة خارجة عن صميم البحث اللّسانيّ الحديث كما هو متداول ومطبّق في ثقافات أخرى، ومعنى هذا أنّ العوائق التي ذكرها (المسدّي)، لا تمسّ جميعُها جوهر الممارسة اللّسانيّة كما ينبغي أن تكون."[41] ومهما يكن من أمر، فإنّ الباحث (عبد السلام

المسدّي) استطاع أن يُقدّمَ تصوّراً عامّا لطبيعة الأزمة اللّسانيّة العربيّة، له الأهميّة البّالغة في إطار ما قدّم من أبحاث في هذا المجال.

9-خاتمة: توصلنا في خاتمة هذا المقال إلى أنّ الخطاب اللّسانيّ العربيّ قد مرّ بتجارب كثيرة وعديدة أسهمت في نضجه وتطوره، فمروره بالأزمات والتلّقبات العلميّة شرط ضروريّ لإعادة النّظر في الكثير من المسلمات والثوابت التي تحدّ من تطوره، كما أنّ التوصّل إلى معرفة العقبات العوائق من شأنه أن يختصر الطريق أمام عملية الإصلاح والتقويم، على غرار ما قام به عبد السلام المسدي من جهود نقديّة مكّنته من الولوج إلى عمق الأفكار وصلب المواضيع عبر مناهج مختلفة كالوصف والتحليل، ومن جملة النتائج المتوصل إليها في المقال:

1-تعتبر اللّسانيات الحديثة والمعاصرة علما هامّاً، لأنّها تساهم في حلّ العديد من المشكلات اللّغويّة والاجتماعية والمرَضية، ومن هنا لم تعدْ اللّسانيّات أمر رفاه؛ بل هي علم استثمر الغرب نتائجه لبعث التطوّر والرّقي، لذلك دعى العديد من المفكّرين الغرب والعرب إلى ضرورة العناية بهذا العلم، وإعطائه الأولويّة الكافيّة لتطويره ودعم انتشاره.

2-تعدّ مرحلة انتقال الفكر اللّسانيّ الغربيّ إلى الثقّافة العربيّة مواجهة حقيقيّة بين التّراث اللّغويّ العربيّ وبين الوافد الجديد، حيث لاقت اللّسانيّات ردودا عنيفة من قبل المحافظين(الأصوليين) فأُسيء الانتفاع بها في الكثير من الأحيان.

3-عدم استغلال اللّغويّين العرب للفرص التي أتيحت من أجل استثمار هذا العلم، فمن بين الفرص الضّائعة عصر النّهضة؛ فقد تعرّف العرب مبكّرا على الجهود اللّسانيّة الغربيّة مجسّدة في علم اللّغة التاريخيّ وعلم اللّغة المقارن، لكن لم يفتح المفكّرون العرب صدورهم للتّرحيب بهذا العلم، إضافة إلى مرحلة الاستشراق وما تميّزت به من محاولة إشاعة هذا العلم، لكن نتائج هذه المحاولة أن اعتُبِر المستشرقون دعاة تغريب وتشويه للّغة العربيّة، وبأنّهم عملاء للاستعمار.

4-اعتبار الانطلاقة الفعلية لتلقّي اللّسانيات في الفكر العربيّ المعاصر، عودة البعثات الطلابيّة من الخارج متأثرين بما تلقّوه من أساتذتهم، أمثال: تمام حسان، عبد الرحمن أيوب، محمود السعران... فبدأوا التأليف في هذا العلم، واندمجوا مع أفكاره ونشروه عن طريق كتاباتهم المتعدّدة.

5-تعدّ أزمة اللّسانيات العربيّة أزمة أسس ومناهج لا أزمة تطوّر بالمفهوم الإبستمولوجيّ؛ لأنّ اللّسانيّات لم تكن سليلة جهد عربيّ خالص، بل هي علم مستورد من الغرب، لذلك نجد هذا العلم يعاني من

مشكلات متعدّدة في الثقافة اللّغوية العربية أبرزها صعوبة تلقّيه، ممّا أدّى إلى وقوعه في أزمة جعلته حبيس الكتب فقط.

6-توجُّه العديد من اللّسانيين إلى نقد المنتوج اللّسانيّ العربيّ، بهدف إعادته إلى المنهج العلميّ القويم(علمية اللّسانيات) لكن جهودهم لم تجد آذانا مصغية، ولم ترق إلى المستوى المطلوب، فقد وُصِفت من قبل العديد من الباحثين بأنّها خواطر وتأملاّت.

7-تأثرُ (عبد السلام المسدي) بشكل واضح بالمبادئ العامّة للّسانيات، حيث يُعدّ أبرز مبدإ دراسة بنية الألسن كموضوع لها، فالنّاقد جعل هذا المبدأ منطلقا أساسا في تقويم الخطاب اللّسانيّ العربيّ، كما تأثّر النّاقد بفلسفة العلوم التي تهتم بنقد العلم وبيان مقوّماته، فحديثة عن العوائق وأزمة العلوم دليل على تأثّره.

8- تعرّض (المسدي) لتقويم وتقييم الخطاب اللّسانيّ العربيّ اعتمادا على المنهج الوصفيّ التحليليّ حيث كانت لغته النّقدية دقيقة في الكثير من الأحيان.

هوامش:

1. أحمد محمد قدور، اللسانيات وآفاق الدّرس اللغويّ، ط1. لبنان: 2001م، دار الفكر المعاصر ودار الفكر دمشق سوريا، ص15.

2. فاطمة الهاشمي البكوش، نشأة الدرس اللّسانيّ العربيّ الحديث، ط1. مصر: 2004م، إيتراك للنشر والتوزيع ص3.

3. المرجع نفسه، ص5.

4. من الباحثين العرب الذي تمّ سؤالهم عن وضع اللّسانيات في الثقافة العربية الحديثة والمعاصرة نذكر على سبيل المثال : (عبد القادر الفاسي الفهري، الطيب البكوش، عبد الرحمن حاج صالح، مصطفى غلفان، أحمد المتوكل، مازن الوعر، نهاد الموسى ...ينظر كتاب: حافظ اسماعيلي علوي و وليد العناتي: أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات، ط1، الجزائر العاصمة، الجزائر:2009م)

5. منذر عياشي: قضايا لسانية وحضارية، دط. دمشق: 1990م، دار طلاس، ص11.

6. محمود أحمد عشاري "أزمة اللسانيات في العالم العربي" بحث القي في ندوة اللّسانيات وتطورها في الوطن العربية، الرباط: 1983م، ص12.

7. حافظ اسماعيلي علوي و وليد العناتي: أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات، ط1، الجزائر العاصمة، الجزائر:2009م الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف ودار الأمان، ص13.

8. يعتبر مصطلح الأزمة من المصطلحات الفلسفية الأكر غموضا وتفرعا، والسبب في ذلك هجرة المصطلح بين العلوم المختلفة، هذا الأمر جعله معانيه تختلف باختلاف السياق الذي يرد فيه، ففي أزمة العلوم يشير توماس كوهن إلى أنّ الأزمة

هي المرحلة الوسطى من سلسلة تقدّم العلوم وتجدّدها، وهي أهم مرحلة؛ إذْ عموما تعتبر هي اللحظة الفاصلة بين تقدّم العلم واندثاره، وهذا الوصف ينطبق على ما حدث للسانيات الغربية في القرن 19 عشر؛ حيث وصلت إلى مرحلة تراكم لم تستطع مقولاتها تفسير الظاهرة اللّغوية بشكل علمي ودقيق؛ فوقعت اللّسانيات آنذاك في أزمة، لكن لما غيّر سوسير المعطيات والأسس الداخلية للعلم، استطاع بعث اللّسانيات بروح جديدة، تنطلق من الركام القديم، هنا يطلق على مفهوم الأزمة أنها أزمة تطوّر، لكن أزمة الخطاب اللّساني العربي لا ينطبق عليها هذا الوصف؛ لأنّ اللّسانيات ليست وليدة الفكر العربي، بل الأصح أن نقول بأنها أزمة تلقي، أو إشكالية تلقي سببتها العوائق والعراقيل الموجودة في الساحة اللّغوية، لذلك وقع اختيارنا على مفهوم الأزمة الذي يرادف مصطلح الإشكالية.

[9]. مصطفى غلفان: اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، دط،كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة رسائل وأطروحات رقم4، جامعة الحسن الثاني عين الشق:1998م، ص17.

[10]. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[11]. من الكتابات التي أشارت إلى وجود أزمة في تلقي الخطاب اللّساني العربيّ نذكر على سبيل المثال:

- مصطفى غلفان، أزمة اللّسانيات العربية الحديثة، ضمن كتاب اللّسانيات العربية الحديثة
- محمود السعران، علم اللغة مقدّمة للقارئ العربي.
- مازن الوعر، أزمة اللسانيات واللّسانيين في الوطن العربي
- الفاسي الفهري، ملاحظات حول الكتابة اللّسانية.
- محمود عشاري، أزمة اللّسانيات العربية.

[12]. مصطفى غلفان: اللسانيات العربية الحديثة دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، ص19. (بتصرف)

[13]. المرجع نفسه، ص63.

[14]. المرجع نفسه، ص85.

[15]. المرجع نفسه، ص86-87.

[16]. حافظ إسماعيلي علوي و وليد العناتي: أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات، ص256-257.

[17]. المرجع نفسه، ص145.

[18]. المرجع نفسه، ص145.

[19]. عبد القادر الفاسي الفهري: اللّسانيات واللّغة العربية: نماذج تركيبية ودلالية، الكتاب الأول، ط1، دار توبقال للنشر ومنشورات عويدات (الرباط) 1982م، ص31.

[20]. Ferdinad De Saussure: cours de linguistique générale,èdition Talatikit Bèjaia algerie, 2002 p22.

[21]. منذر عياشي: قضايا لسانية وحضارية، ص16.

[22]. حافظ إسماعيلي علوي و وليد العناتي: أسئلة اللغة أسئلة اللسانيات ، ص56.

[23]. عبد السلام المسدي: اللسانيات وأسسها المعرفية، دط، الدار التونسية للنشر (تونس) 1986م، ص11.

[24]. المرجع نفسه، ص12.

[25]. سعيد بن ناصر الغامدي: المرجعية معناها وأهميّتها وأقسامها، مجلّة أمّ القرى لعلوم الشّريعة والدّراسات الإسلامية، العدد 50، رجب 1431هـ، ص372-373.

[26]. عبد السلام المسدي: الأدب وخطاب النقد،ط1، دار الكتاب العربية المتحدة (بيروت/ لبنان)، 2004م، ص60.

[27]. عبد السلام المسدي مباحث تأسسية في اللّسانيات، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2010م، ص11.

[28]. عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، ط3، دار الكتاب الجديد المتحدّة، بيروت، 2009م، ص24.

[29]. المرجع نفسه، ص12.

[30]. عبد السلام المسدي: اتقوا التاريخ أيها العرب، دط، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، (تونس)، 1999م، ص84.

31. صالح بلعيد، اللّغة العلميّة، دط، دار هومة للنشر والتوزيع (الجزائر)، 2003م، ص116.

[32] . Gérard Vigner ; Lire du texte au sens –élément pour un enseignement de la lecture. Paris:CLE International, 1979; p98.

33. عبد السلام المسدي: التفكير اللّساني في الحضارة العربية، ص271.

[34]. مصطفى غلفان: اللسانيات العربية أسئلة المنهج، ط1، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع (عمان /الأردن) 2013م، ص115.

[35]. عبد السلام المسدي: اللسانيات وأسسها المعرفية ،ص13.

[36]. المرجع نفسه، ص13.

[37]. المرجع نفسه، ص14.

[38]. مصطفى غلفان: اللسانيات العربية: أسئلة المنهج، ص119.

[39]. عبد السلام المسدي: اللسانيات وأسسها المعرفية، ص15.

[40]. المرجع نفسه، ص18.

[41]. مصطفى غلفان: اللسانيات العربية: أسئلة المنهج، ص118.